عزيز فهمي

شاعر الحرية والشباب

١٩٠٩- ١٩٥٢

هو الدكتور عزيز فهمي، من أعلام الحرية والأدب، وأبطال الوطنية والجهاد.

ولد سنة ١٩٠٩ بطنطا، وهو نجل الأستاذ عبد السلام فهمي جمعه رئيس مجلس النواب السابق ومن المجاهدين في الحركة الوطنية.

تلقي علومه الابتدائية والثانوية في المدرسة الابتدائية ثم في المدرسة الثانوية بطنطا، ثم انتقل إلى مدرسة الجيزة الثانوية حيث نال منها شهادة البكالوريا.

وبدت عليه منذ أن كان يتلقى التعليم الثانوية ميوله نحو الحرية والأدب والشعر وأنشأ وهو في مدرسة الجزية الثانوية مجلة أدبية كان ينشر فيها آراءه وأشعاره.

وانتقل إلى التعليم العالي بالقاهرة، وجمع بين دراسة الحقوق في كلية الحقوق في كلية الحقوق ودراسة الأدب بالانتساب إلى كلية الآداب، فنال ليسانس الآداب سنة ١٩٣٢، والحقوق في سنة ١٩٣٣، وكانت رسالته التي قدمها إلى كلية الآداب في المقارنة في الشعر العربي بين العصر الأموي والعصر العباسي.

وكان طموحاً إلى الاستزادة من العلوم والآداب، فسار إلى باريس سنة ١٩٣٣، والتحق بجامعتها وحصل منها سنة ١٩٣٨ على الدكتوراه في القانون وكان موضوع رسالته (الامتيازات الأجنبية في مصر ومعاهدة مونترو)، وكانت أول رسالة من مصر عن هذه المعاهدة، والتحق في الوقت نفسه بالسوربون للحصول على الدكتوراه في الأدب.

وقد شبت الحرب العالمية الثانية وهو في باريس، فعاد إلى مصر سنة ١٩٤٢ مملوءا وطنية وتضحية، مستكملا دراساته العملية والأدبية.

وشغل منصب وكيل نيابة بالمحاكم المختلطة وقتا قصيرا، ثم ضاق صدرا بالقيود الحكومية، فاستقال مؤثرا العمل الحر، واشتغل بالمحاماة والصحافة، ووقف قلمه ولسانه، وقلبه وجنانه، على الجهاد في سبيل الحرية، ومكافحة الاستعمار والطغيان والفساد.

كان أديباً شاعراً، وخطيبا مفوها، يجمع بين بلاغة العبارة وسلاسة الأسلوب، وقوة التفكير، وغزارة المادة، والشجاعة الأبية، كان يدافع عن الحرية بقلمه ولسانه على صفحات الجرائد، وبلسانه فوق المنابر، وفي ساحات القضاء، وتحت قبة البرلمان.

وقد اعتقل وحقق معه غير مرة بتهمة العيب في الذات الملكية، أو التحريض على الإخلال بالنظام، وكان في المحاماة يدافع عن الحرية وعن المتهمين في جرائم الرأي، ويهاجم الطغيان والقلم السياسي والإجراءات التعسفية.

دخل البرلمان سنة ١٩٥٠ نائباً عن دائرة الجمالية بالقاهرة فكانت صفحته في دار النيابة أقوى صفحات حياته التي قضاها في الكفاح الوطني، وعلى أنه انتخب مرشحاً من الوفد، فإنه لم يتقيد بسياسة الحكومة الوفدية، وعارضها فيما يستحق المعارضة من تصرفاتها، و له في ذلك المواقف المشرفة، وظهرت مواهبه البرلمانية كخطيب ومناضل برلماني من الطراز الرفيع، كان يناضل عن الحرية في كل مناسب، وله المواقف المشهودة في معارضة نظام الاشتباه السياسي، ومعارضة القانون المعدل لنظام مجلس الدولة وهو القانون الذي قدمته الحكومة الوفدية إلى البرلمان للانتقاص من سلطات المجلس واستقلاله، ودوي صوته مجلجلا معارضا مشروعات تقييد حرية الصحافة سنة ١٩٥١، وكان لمعارضته لهذه المشروعات دوي كبير وصدى استحسان عظيم في الرأي العام، وبلغت مكانته الوطنية والبرلمانية ذروتها في معارضته لهذه المشروعات حتى انتهت بسحبها من البرلمان، فكانت هذه النتيجة أعظم انتصار للفقيد في حياته السياسية والوطنية.

ولما شبت معركة القتال بين الفدائيين والإنجليز عقب إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ في أكتوبر سنة ١٩٥١، سافر إلى منطقة القنال، وساهم في حركات المقاومة ضد القوات البريطانية، واستهدف للقتل غير مرة، فكان ذلك منه غاية البذل والتضحية.

وكانت وفاته يوم أول مايو سنة ١٩٥٢ في حادثة فاجعة، بل مأساة أليمة، إذ كان يعتزم السفر إلى الفشن في صبيحة ذلك اليوم ليترافع أمام محكمتها في إحدى القضايا، وكان ينوي السفر بالقطار، ولكن مواعيد السفر كانت قد تغيرت ابتداء من أول مايو لحلول الصيف، وقد

فاته أن يعرف الموعد الجديد للسفر، وفلم يدرك قطار الصباح، فاستأجر سيارة ركبها قاصداً الفشن، وفيما هي تسير في الطريق الزراعي وقع لها قبل العياط ببضعة كيلو مترات حادث فجائي، قبلها رأسا على عقب وهوي بها في الترعة المحازية للطريق، فمات الفقيد غريقا، وكانت وفاته فجيعة للوطن وبنيه، إذ فقدوا بوفاته مجاهداً صادقاً بين المجاهدين الأحرار.

كانت وطنيته فوق حزبيته، وعقيدته أساس شخصيته، كان يرى في الحياة السياسية رسالة يؤديها، لا يبتغي منها لنفسه مغنما ولا نفعا، ولا يقصد إلا وجه الله والوطن، فلا غرو أن حزنت الأمة لوفاته حزنا عظيما.

اسلمي مصر

قال رحمه الله في قصيدة له سنة ١٩٣١ بعنوان (اسلمي مصر):

اسلمي مصر على مر القرون ... حسبك الله نصيرا ومعين
لن تضامي أنت يا مهد الخلو ... د وهذا بعض أشبال العرين
من تكن ليلاه مصر لا يهن ... ساعة الذل ولو ذاق المنون

إلى أن قال:

لا رعاك الله يا عهدا مضى ... عهد بغى وافتئات وأفون
محنة لا عهد للناس بها ... جزع الصبر لها، والصابرون
عصفت بالحرث والنسل معا ... وأعادت عهد كسرى ونرون
ونضت سيفا بتوكا كلما ... هب، ذقنا حدية المنون
دولة الحجاج أن قيست بها ... مثل في الرفق عند المنصفين

وهوى الأوطان للأحرار دين

إلى أن قال في تمجيد التضحية:

فـــي يمـــين الله مـــا ضـــحيتمو ... لا يضـــيع الله أجـــر المخلصـــين
فـي هـوى مصـر يضـحى عـن حجـا ... ورضـــاء كـــل مســـتبق ضـــنين
لـــن يضـــيع العـــرف عنـــد الله إن ... ضـــيع الخيـــر أصـــيل وهجـــين
هـــو عنـــد النـــاس جـــود ووفـــا ... هـــو عنـــد الله إيمـــان وديـــن
ولبانـــات الهـــوى شـــتى كنـــا ... ر، ســـل التـــاريخ عنهـــا والمنـــون
فهـــوى ليلـــي قـــيس متعـــة ... وهـــوى الأوطـــان للأحـــرار ديـــن
هـــي ليلانـــا جميعـــا فـــانظروا ... هـــل قســـطنا مـــا علينـــا مـــن ديـــون؟
هـــل جمعنـــا مـــن أفـــانين المنـــى ... مـــا تمنتـــه علـــى مصـــر الســـنين؟
ليتنـــي أحيـــا إلـــى يـــوم أرى ... فجـــر مصـــر فبـــه وضـــاء الجبـــين
لا أبـــالي أعظـــامي بعـــده ... فـــي ســـهوب [1] مـــن ثراهـــا أم حـــزون
لا ســـقاك النيـــل يـــا مصـــر إذا ... لـــم نقـــرب مـــن أمانيـــك الشـــطون
ونعـــد مجـــداً ســـليبا غـــابرا ... ونعيـــر بلـــواك العـــالمين

لا يخشى الموت

كان رحمه الله يتنبأ بأن لا يطول به العمر وأنه سيموت في ربيع الحياة، فكان يستعد للقاء الموت، ولا يهابه ولا يخشاه، وينشد الخلود.

قال في هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٣٣ بعنوان (لحن الموت):

أيهـــا العـــراف هـــل عنـــد النجـــوم ... ســـر هـــذا الكـــون أو عنـــد المنـــون؟
كـــاذب علمـــك مـــا لـــم تنبـــي ... حـــرت والله ولجـــت بـــي الظنـــون
جهـــل الســـر أنـــاس قبلنـــا ... وجهلنـــا فـــوق جهـــل الأولـــين
حملـــوا العـــبء وقـــد نـــاءت بـــه ... أمـــم مـــن قبـــل عـــاد و(أمـــون)
ولكـــم ســـاءلت نفســـي حـــائرا ... حيـــرة الســـاري بليـــل ذي دجـــون:
مـــا وجـــودي؟ مـــا ســـبيلي؟ مـــن أنـــا ... مـــا جهـــادي؟ مـــا مصـــيري بعـــد حـــين؟

---

(١) السهوب، كالسهول: الأراضي المستوية؛ والحزون؛ جمع حزن وهي الأرض الصلبة.

* * *

يـــا بنـــي أمـــي لقـــد جـــد نـــوى وغـــدا يجمعنـــي واد شـــطون [1]
لا تقولـــوا مـــات فـــي شـــوخ البـــا ذلـــك الحـــق تجلـــى واليقـــين
لـــيس منـــي مـــن بكـــاني فـــارعووا لـــن يـــرد الـــدمع محتـــوم المنـــون

* * *

لا تقولـــوا ليتـــه عـــاش! فقـــد فـــارق الأصـــفاد عصـــفور ســـجين
شـــاقني الخلـــد كمـــا شـــاق القطـــا سلســـبيل فـــي عقـــاب وقـــرون [2]

يا قارئ الكف

وقال في هذا المعنى سنة ١٩٤٤ من قصيدة له بعنوان (يا قارئ الكف):

يـــا قـــارئ الكـــف مـــاذا أضـــمر القـــدر؟ ولا عليـــك إذا لـــم يصـــدق الخبـــر
ومـــا اهتمامـــك باســـمي؟ هبـــه عنتـــرة وهبـــه زيـــداً.. وجـــدي عمـــرو أو عمـــر
عليـــك بـــالكف فـــاقرأ بـــين أســـطرها مـــاذا يـــدل عليـــه الخـــط والأثـــر؟

* * *

أطـــالع الـــيمن أن الخـــط متصـــل وآيـــة الـــنحس أن الحـــد منبتـــر؟
ومـــا الشـــيات [3] علـــى جنبـــي ثمانيـــة تبـــدو كوشـــم وتخفـــي حولهـــا غـــرر؟
خبـــر عـــن الفـــأل لا تجفـــل فســـانحة عنـــدي كبارحـــة والشـــر ينتظـــر

---

(١) الشطون: البعيد.

(٢) العقاب: جمع عقبة: طريق في الجبل وعر، وقرون، جمع قرن: القطعة من الجبل.

(٣) الشيان، جمع شية: العلامة.

هـل أنسـأ الله فـي عمـري إلـى أجـل ... يلـح فيـه علـى الهـم والكبـر؟
وهـل أبلـغ آمـالي؟ وأبعـدها ... عنـدي كأقربهـا نـاء ومحتضـر
هبنـي ظفـرت بآمـالي علـى ظمـأ ... إذا ارتويـت فمـاذا يعقـب الظفـر؟
وهـل أوسـد حزنـا حـرة وحصـى ... فـي جـوف هاويـة أغوارهـا حجـر
أم هـوجلا [1] قـذفا [2] تتبـو براكبهـا ... لا البيـد عبـدها يومـاً ولا الحضـر
قفـراء جـرداء لـم تكـلأ حشائشـها ... إلا السـواقي ولـم يعلـق بهـا مطـر
أم تقـدح النـار مـن حـولي فتطعمـي ... حيـا وأشـوى بهـا أيـان تسـتعر
أم أن فـي مسـبح الحيتـان منقلبـي ... يـوم الرحيـل إذا نـاداني السـفر [3]
قـل مـا بـدا لـك واهـرف غيـر مبـدع ... فـالرجم بالغيـب- لـو تـدري- هـو الهـذر
اللحـد كاللحـد والأكفـان واحـدة ... ولا خيـار لميـت حـين يـدثر
والمـال كالعـدم لـولا أنـه أمـل ... إن الغنـى إلـى الأمـوال مفتقـر
والسـعد حـال علـى الإنسـان طارئـة ... (وعنـد صـفو الليـالي يحـدث الكـدر)
لـولا التشـابه فـي الأقـدار مـا صـدقت ... عرافـة الحـي مـن تـوفى لهـا النـذر

الشورى

قال من قصيدة له سنة ١٩٤٣:

بنـي مصـر هـذا الحـق أبلـج واضـح ... وهـذا صـراط يسـتوي عنـده القصـد
إذا شـئتم الشـورى فـذلك حكمهـا ... وإن شـئتم الفوضـى فلـيس لهـا حـد
تـولي زمـان الحـاكمين بـأمرهم ... ولـم يبـق فـي الـدنيا مسـود ولا عبـد
تـولى زمـان الفـرد لا عـاد عهـده ... وبـدل بالدسـتور سـلطانه الفـرد

---

(١) الهوجل: المغاز البعيدة لا علم بها.

(٢) القذف: البعيدة.

(٣) كأنه في هذا البيت كان يتنبأ بموته غرقا، وقد توفى رحمه الله غرقا سنة ١٩٥٢.

الضمير

وقال يصف الضمير من قصيدة له سنة ١٩٤٤:

صاحب وسنان من طول السهر ... إن تنم ناداك أو تنس أذكر
كلما غافلته في سكرة ... من أمانيك تجني أو عذر
فإذا كفرت عن وزر عفا ... وإذا عدت إلى إثم ثأر
ليس ملموساً فتدري كنهه ... وهو ما كتمت يدري ما تسر
وتواريه فيغضي ساعة ... ثم يستيقظ في لمح البصر
ليس عقلا أو شعوراً خالصاً ... بل تراثا من شعور وفكر
فهو عقل باطن أو ملهم ... وهو إحساس قديم مدخر
كم جرعت الصاب من ترياقه ... واستسغت الشهد مما قد هصر
أنتما الدهر طريد آبق ... وغريم طارد أو منتصر
أينما وليت أحصي مرجئا ... موعداً حتما فأيان المفر؟
يتراءى شاحباً أو إمعا ... فهو كالظل إذا الظل انتشر
وهو جبار عنيف تارة ... وهو أحياناً ضعيف يأتمر
وهو إعصار وريح صرصر ... وهو كالسيل إذا السيل انهمر
وهو كالبحر إذا البحر طغى ... وهو كالموج إذا الموج انحسر
وهو كالسهم إذا السهم رمي ... وهو كالسيف إذا السيف بتر
آمر ناه وعاص طيع ... وهو الآمر وهو المزدجر
لا ينام العمر إلا ساعة ... فترقبها وبالغ في الحذر
ساعة إن نمت عنها غافلا ... عدت المخمور أو كالمحتضر
أيها الساهر نم أو لا تنم ... وترفق وتجلد واستعر
إن جنينا فعلينا وزرنا ... وإذا نحن أنبنا فاعتذر

ومصر تناديهم وصوتي يردد

وقال في يونيه سنة ١٩٤٦ وهو معتقل في سجن الأجانب:

كفاك عزاء أنك اليوم أوحد ... وقد يسكن الغمد الحسام المجرد

يهـــون عـــذاب الســـجن والليـــل مـــوحش ... وبـــذهب عنـــك الحـــزن فيـــه تجلـــد
وقـــد يؤســـر الليـــث المنيـــع عرينـــه ... ويرهـــب منـــه الصـــوت وهـــو مصـــفد
وأهبـــت بقـــومي أن يـــذودوا عـــن الحمـــى ... ومازلـــت أدعـــوهم ومازلـــت أشـــهد
أهبـــت بقـــومي والخطـــوب زواحـــف ... تلـــم بهـــم طـــوراً وطـــوراً تهـــدد
وأنـــذرت حتـــى بـــح صـــوتي ولـــم أزل ... ومصـــر تنـــاديهم وصـــوتي يـــردد

نذرت نفسي قرباناً لفاديها

ومن قصيدة أخرى نظمها وهو في سجن الأجانب سنة ١٩٤٦:

شـــكت إلـــى الله مـــن عـــدوان أهليهـــا ... وعـــاث غاصـــبها فـــي أرض راعيهـــا
واحـــر قلبـــاه مـــن يـــأس يصـــارعها ... يكـــاد لـــولا بقايـــا الصـــبر يرديهـــا
فزعـــت مـــن غـــدها علمـــا بحاضـــرها ... ورضـــت نفســـي علـــى نســـيان ماضـــيها
وقفـــت قلبـــي عليهـــا فـــي شـــبيبته ... فشـــاب منهـــا ومـــن عـــدوان ســـاليها
لمـــا أفقـــت مـــن الماضـــي بـــلا أمـــل ... نـــذرت نفســـي قربانـــا لفاديهـــا

* * *

ذكـــرت مصـــر فهـــاجتني مواجعهـــا ... وعزنـــي الـــدمع حتـــى كـــدت أبكيهـــا
يـــا لائمـــي وأنـــا الجـــاني علـــى كبـــدي ... دع عنـــك لـــومي فـــإن اللـــوم يغريهـــا
كـــل يغنـــي ليشـــجي ســـامرا وهـــوى ... وقـــد يغنـــي لأوطـــار يرجيهـــا
ولـــي لـــي ســـامر فيهـــا ولا وطـــر ... ولا زعمـــت جـــوادي مـــذاكيها
وإنمـــا هـــي آلامـــي اكتمهـــا ... حتـــى يضـــيق بهـــا صـــدري فأحكيهـــا

* * *

نزحـــت عنهـــا فلـــم أعـــدل بهـــا وطنـــا ... وبـــات قلبـــي أســـيراً فـــي مغانيهـــا
وصـــنت شـــعري إلا عـــن مفاتنهـــا ... وهمـــت فـــي الأرض مســـحوراً بواديهـــا
ورق شـــعري كمـــا رقـــت جـــداولها ... وراق وصـــفي كمـــا راقـــت مجاليهـــا
ومـــا رأيـــت كناســـا فيـــه جـــؤذره ... إلا ذكـــرى غـــزالا فـــي مراعيهـــا

* * *

لمـــا رددت إليهـــا رد لـــي أملـــي ... عنـــد اللقـــاء وأحيـــاني تـــدانيها
وقـــد طويـــت إليهـــا الـــيم واقتربـــت ... يـــي الســـفينة مـــن أولـــى موانيهـــا
فكـــاد يظفـــر قلبـــي مـــن توثبـــه ... وقـــد تنســـم ريحـــاً مـــن نواحيهـــا
وحـــال قلبـــي دموعـــا عنـــد مـــا أتـــأدت ... فرحـــت أنثـــر دمعـــي. فـــي ضـــواحيها
ســـــجدت لله عرفانـــــا لنعمتـــــه ... لمـــا حللـــت رفيقـــاً مـــن روابيهـــا
فكيـــف حالـــت حيـــاتي عنـــدها ســـقراً ... وكيـــف أصـــليت نـــاراً مـــن ســـواقبها!

* * *

جـــاري عليهـــا صـــروف الـــدهر واختلفـــت ... أيـــدي الرمـــاة فآهـــا مـــن أعاديهـــا!
راشـــوا لهـــا الســـهم مســـموماً فشـــتتها ... وكـــاد لـــولا يـــد الـــرحمن يصـــميها
واثخنوهـــا جارحـــا فـــي مقاتلهـــا ... يـــا للجريمـــة مـــن عـــدوان آســـيها

إلى أن قال:

فزعـــت مـــن شـــرك يلقيـــه غاصـــبها ... قبـــل الجـــلاء لعـــل (الوعـــد) يغريهـــا
ومـــا الجـــلاء إذا شـــدت [1] بسلســـلة ... مـــن القيـــود و(شـــرط الحلـــف) يمليهـــا
تشـــعب الـــرأي والأحـــزاب ســـادرة ... ومصـــر صـــابرة والصـــبر يضـــنيها
وكيـــف تـــنهض مـــن أســـر يكبلهـــا ... والقيـــد آمرهـــا والقيـــد ناهيهـــا

---

(١) الإشارة هنا إلى مصر.

بني وطني أهبت بكم زماناً

وقال في نوفمبر سنة ١٩٤٦ يندد بالإنجليز على أثر الاعتداءات الدامية التي وقعت منهم في القاهرة والإسكندرية، ويدعو المواطنين إلى البذل والتضحية:

سلوا من سامها [١] هذا العذابا ... ومن شرع الأسنة والحرابا
سلوا جلادها تبت يداه ... بأي شريعة فرض العقابا
أما ينهاه عقل أو ضمير ... يرد له المحجة والصوابا
ضلال أن يعاتب مستبد ... و أولى بالمسود أن يعابا
وجهل أن يخاطب غير أهل ... فلا تحزن عليه إذا تغابى
يصعر خده صلفا وحمقا ... ويوردها على ظمأ سرايا
وكم أسدت إليه وكم تجني ... ولم يحسب لعاقبة حسابا
بأي جريرة وبأي عدل ... تجرع مصر كأس النصر صابا؟
ولولا مصر ما غنموا فلاة ... ولو مصر ما غلبوا ذبابا

* * *

سلوا (دنكرك) هل نهضوا بعبء ... وقد غنموا السلامة والإيابا
سلوا (الصحراء) عنهم كيف طاروا ... وهل تخذوا النعام لهم ركابا
سلوا (العلمين) هل ثبتوا بأرض ... وقد سبقوا مع العدو السحابا
فكيف تعاظموا بعد انكسار ... وكيف تبدلوا أسداً غضابا
سلوا (الميثاق) [٢] هل وأدوه صبحا ... وهل نسجوا من الكفن الإهابا
وكيف جرى على فمهم كذابا ... وسال على سواعدهم خضابا
وكيف استبدلوا شرعاً بشرع ... فأضحى الحق عنهم اغتصابا
كذلك تلذع الأفعى كريماً ... جزاء صنيعه وتمد نابا
وبين الناس رقط وابن آوي ... وذؤبان ومن غلب الذئابا

---

(١) يقصد الإنجليز.

(٢) ميثاق الأمم المتحدة.

إلى أن قال:

ويـــا وطنـــي فـــديتك مـــن جـــراح ... إذا نكـــأت حملناهـــا عـــذابا
وهـــل يأســـو الجـــريح ســـوى جـــريح ... يشـــاطره الفجيعـــة والمصـــابا
وكـــم مـــن قســـور ورد المنايـــا ... يـــروع ببطشـــه الســـبع الســـغابا
إذا كـــرت عليـــه الخيـــل فـــرت ... وإن ســـام الجيـــاد حمـــي العرابـــا
روي دمـــه ثـــراك ففـــاح مســـكا ... وأينـــع روضـــة وزكـــا ترابـــا
وآخـــر فـــي (الجنـــوب) ثـــوي شـــهيداً ... فضـــج النيـــل واجتـــاح الرحابـــا
لحـــا الله الخـــوارج والمطايـــا ... ومـــن أضـــحت نفوســـهم خرابـــا
ولا كـــان للأولـــى ذهبـــوا فـــداء ... مـــع الحلـــف المرافـــق والرقابـــا
وطـــوبى للأولـــى ذهبـــوا فـــداء ... إلـــى الرضـــوان واســـتبقوا الثوابـــا

***

بنـــي وطنـــي أهبـــت زمانـــا ... فلمـــا بـــح صـــوتي قيـــل هابـــا
ولـــو نطـــق الجمـــاد كمـــا نطقنـــا ... لأســـمعه الصـــدى عـــنكم جوابـــا